خطبة صلاة الجمعة 12/8/2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم العبادة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا﴾ [الفجر: 15 – 17].

قال المفسرون: (ردّ الله على من ظن أنّ سعة الرزق إكرام وأنّ الفقر إهانة، فأخبر أنّ الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته). فصححت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«ما تعدُّون الصُّرَعةَ فيكم؟»** قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **«ليس بذاك، ولكنه الذي يَملِكُ نَفْسَه عند الغضب»**.

وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه»**.

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجّه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالاً وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصوّر المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضنّ به، بينما من تصوّر أنّ الذهب معدنٌ خسيس فرّط فيه وضيّعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

من فهم معنى المجد وطرق تحصيله صبر على تحصيل العلم النافع وفعل العمل الصالح، إذ هما طريقا تحصيل المجد، بينما يتبرم من كثرة العمل ومتابعة العلم من ظنّ المجد قيلَ وقال وكثرةَ مال.

وقد قال الأُول:

لا تَحسَبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلُهُ لنْ تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا

فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه سلسلة من الخطب عنوانها: **مفاهيم تحتاج إلى تصحيح**، جاءت لتوضيح وتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه، والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم العبادة**

ما العبادة، ما أوقاتها، أين تقام؟

العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي تتضمن غاية الخضوع والحب لله تعالى.

فالحياة كلها مسرح للعبادة، وعمر الإنسان المكلف كله زمن للعبادة، وحيثما كان المسلم أقام العبادة، شعائر الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج بضوابطها الشرعية عبادة، والأعمال الصالحة عموماً إن صحت النية عبادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كلُّ سلامى من الناس عليه صدقةٌ، كلَّ يومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمس: تَعدِلُ بين الاثنين صدقة، وتُعينُ الرَّجل في دابته، فتحمله عليها أو ترفع له عليها مَتاعَه، صدقةٌ، والكلمَةُ الطَّيِّبَةُ صدقة، وكلُّ خُطوةٍ تمشيها إلى الصلاة صَدَقة، وتُميطُ الأذى عن الطريق صدقة**» [البخاري ومسلم].

وعملُ الإنسان في أمور معاشه عبادة، إن نوى فيه العبادة والتزم فيه الضوابط الشرعية ولم يصده عن سائر واجباته الشرعية، رأى الصحابة رجلاً فعجبوا من جَلَده ونشاطه فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن**

خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء وتفاخرا فهو في سبيل الشيطان» [الطبراني في الثلاثة].

والأعمال الفطرية يمكن أن تصبح عبادة بالنية الصالحة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» [مسلم]، وكذلك الحال في الأكل والشرب إن قصد بهما التقوى على طاعة الله تعالى.

وهذا المدلول الشامل للعبادة في الإسلام هو مضمون دعوة الرسل عليهم السلام جميعاً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وترجع ثمرة العبادة إلى الشخص العابد نفسه وإلى المجتمع الذي يحيا به والأمة التي ينتمي إليها.

تغذي الروح وتوازن بينها وبين والجسد، وتحقق حرية الإنسان وتخلصه من الخضوع لغير الله من الأشخاص والأشياء، وتنشر الخير والصلاح في الأسرة والمجتمع، وتسود بها الأمة لتصير خير أمة.

وبهذا تظهر – أيها الإخوة – الإجابة على الأسئلة الثلاثة في مطلع الخطبة: ما العبادة، وما أوقاتها، وأين تقام.

ما العبادة؟ هي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ما أوقاتها؟ وقتها عمر المكلف كلُّه.

أين تقام؟ تقام في كل ساحات الحياة في المسجد والمنزل، في المعمل والمشفى، في المزارع والمحاكم، في المدرسة والجامعة والملعب.

مؤانسة الزوجة وبرها عبادة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19].

طاعة الزوج وبره عبادة ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: 34].

تربية الأبناء عبادة ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 6].

الوفاء بالعقود في معاملاتنا الحياتية عبادة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

الحشمة والعفة عبادة ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: 33].

العدل في الحكم عبادة ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

دعوة الخلق إلى الله عبادة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

دراستك في المدرسة أو الجامعة أو الجامع أو المنزل عبادة ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

سعيك في الأرض لتحصيل المال الحلال عبادة ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15].

الصبر على الشدائد عبادة ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: 200].

الصلاة والزكاة عبادة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43].

وهكذا فحياة المسلم كلها عبادة وأزمنته كلها عبادة وفي كل مكان حل به يقيم عبادة، يتقرب بها إلى الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163].

أيها الإخوة:

من أخطر الانحرافات التي وقعت في ذهن المسلم انحرافُه في فهم العبادة، عندما قَصَرَ العبادةَ على أداء الشعائر التعبدية من: صلاة، وصيام، وحج، وأوراد، وقراءة قرآن فحسب، ورأى المعاملات والأخلاق والمباحات وغيرها لا يدخل في العبادة.

فتحولت العبادة من مفهومها الشامل الواسع الذي يسع الحياة إلى مفهوم ضيق ينحصر في زاوية من زوايا الحياة، فهَوتِ الأمةُ وأفرادُها من ريادة البشرية إلى فريسة تنهشها الذئاب.

إنّ هذا المفهوم الضيق للعبادة صنع مسلماً صائماً مصلياً قارئاً للقرآن لكنه لا يتورع أن يغشّ، أو يُرابي، أو يظلم، أو يملأ بيته من وسائل الإفساد ما الله به عليم!

وصنع مسلمة صائمةً مصليةً لكنّها لا تتورع أن تطلب طلاقاً من غير ما بأس وأن تترك ولدها الرضيع من دون راعية وأن تخالط من شاءت وكيف شاءت!

وصنع شباباً يتواعدون للاجتماع على معصية بعد أدائهم لصلاة مفروضة يقولون: ساعة لك وساعة لربك!

وعلى الطرف المقابل صنع هذا المفهوم الضيق للعبادةِ أناساً يتشددون في الشعائر ويُفْرِطُون فيها ظانين ألا عبادة إلا هنا!

فتجد شاباً يريد اعتزال الحياة والأحياء ليبقى جالساً في زاوية بيته مصلياً صائماً تالياً لكتاب الله؛ لأنه فهم العبادة مقصورة على معناها الضيق – الشعائر–.

وتجد فتاة قصرت نفسها على مسجدها وصلاتها وقرآنها وقصَّرت في عون والدتها في الواجبات المنزلية والحياتية، أو قصَّرت في حق زوجها وبيتها، لأنها فهمت العبادة مقصورة على معناها الضيق – الشعائر–.

لقد نسي هؤلاء أنّ الحياة كلَّها ساحة للعبادة ونسوا أن «**المسلم الذي يُخالط الناس، ويَصْبِرُ على أَذاهم خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يَصْبِرُ على أذاهم**» (الترمذي)

ونسوا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ولكني أصُومُ وأفْطِرُ، وأصَلِّي وأرْقُدُ، وأتَزَوَّجُ النِّساءَ، فَمَن رغِبَ عَنْ سُنَّتِي فليس مِنِّي**» (البخاري ومسلم)

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

قَصرُ العبادة على الشعائر مفهوم يضيّق الواسع، والصواب في فهم العبادة الآتي:

1- العبادة هي الغاية العظمى للوجود الإنساني وفائدتها راجعة إليه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] فلا تنسَ غاية وجودك.

2- العبادة مبسوطة على كل ميادين الحياة فالعمل عبادة، والراحة عبادة، والتعلم والتعليم والحياة الزوجية عبادة، ومرافعات القضاء عبادة، والعلاقات الدولية عبادة، وبناء الأمة عبادة.

فما عليك إلا تسعى في ميادين الحياة وأن تصحح نيتك وتلتزم ضوابط الشريعة فيما أنت فيه من العمل.

3- العبادة ممتدة في كل أمكنة وجودك في المدرسة والمنزل والمسجد والمعمل والمؤسسة العامة والخاصة والمحكمة والطريق وسائر الأماكن.

فما عليك إلا أن تسأل نفسك حيث كنت كيف أكسب رضا الله في هذا المكان.

4- العبادة مستمرة في كل لحظات حياتك، وما العبادات الشعائرية إلا لحظات تتزود فيها بالطاقة الروحية التي تعينك على أداء بقية العبادات المطلوبة منك، كما يتزود المسافر من محطات الوقود.

فما عليك إلا أن تسأل نفسك في كل وقت كيف أكسب رضا الله في هذا الزمان.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة "**مفاهيم تحتاج إلى تصحيح**" وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم العبادة، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

أخرج البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «**كنتُ رِدْفَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، قال: يا معاذَ بنَ جبل، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، فقلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ العباد على الله: ألا يعذِّبَهم**».

والحمد لله رب العالمين